حول مسرحيات محمود تيمور

من اتجاهات علم النفس

في المسرحية

للأستاذ زكي طليمات

مفتش شئون التمثيل بالمعارف

[أصدر الأستاذ الكبير محمود بك تيمور مؤلفاً يتضمن ثلاث مسرحيات جديدة فيها الكثير من طرافة التحليل النفسي ، فآثرت أن أقدم لنقدي إياها بهذا البحث الذي يكاد يكون قائماً بذاته ولذاته]

كثيراً ما يقع للقارئ المنقب في أروع القصص والمسرحيات الغربية ، مترجمة كانت أو بلغتها الأصلية ، — وقليلاً ما يقع له ذلك في مطالعة آثار أدباء الطليعة في مصر خاصة وفي الأقطار العربية عامة — أن يلاحظ شيئاً يستوقفه برهة ينسرح خياله فيها ، ويأخذ ذهنه بأسباب التأمل والمراجعة ، ذلك أنه يرى شخصية من شخصيات هذه المسرحية أو القصة يستوي فجأة على حالة تنبو عن التقويم النفسي العام الذي أجراه عليها المؤلف منذ بدء الرواية ، فإذا بهذه الشخصية تغمض وتبهم ، وإذا بها تصبح نهبة لتعقيد نفسي غريب ، فتبدر منها بادرات تتناقض مع المعقول صدوره منها قولاً أو فعلاً ، وتتراءى هذه الشخصية في النهاية وكأنما تلبسها ذاتان مختلفتان !! وهي مع كل هذا تبدو إنسانية أصيلة تحس بصدق خلجاتها ، وتلمح في وجهها أشباهاً فيمن نعرف من الناس أو فيمن يصل إلينا خبرهم بطريق السماع المقطوع بصحته .

إن الفكرة الشائعة على أن النفس الواحدة قد تبدو أحياناً في تصرفاتها وكأنما تلبسها شخصيتان متناقضتان ، تجد أعراقاً لها ممتدة بعيدة إلى صميم الأدب الاتباعي [1] ، ثم تلوح بادية الأشاجع في الأدب الروماني [2] ، هذا على الرغم من أن القاعدة الأساسية في علم النفس لدى الاتباعيين — والرومانسيون تبع لهم في هذا — هو أن كل ما يخطر بالنفس ويجري فيها واضح أمره لها ، لأنها تحسه وتدري بمسراه فيها ، فهي تتحكم فيه إذا شاءت بطريق الإرادة ، وهي تنظمه بمعاونة المنطق ، وتكون النتيجة الحتمية لهذه القاعدة : أنه بما أن النفس في هذا الصدد لا يخفى عليها

(١) ويعرف بالكلاسيكي وهو لون من الأدب جاء بعد القرون الوسطى

(٢) ويعرف بالرومانتيكي ، وهو لون من الأدب جاء بعد الأدب الكلاسيكي في فرنسا خاصة

وإن إدراك الحق ورسمه على الصحف أمر سهل جداً على النفوس ، ولكن العمل على تحقيقه وتجسيمه بين الناس متمثلاً في أشخاص وأعمال مهمة شاقة ، لا يتحملها إلا أولو العزم من محبي الإصلاح

***

هناك جانب خفي للفقيد في مؤازرة هذه الجمعية شاء هو أن يخفيه عمداً ، هو جانب بذله للمال حسب طاقته في بعض حاجات هذه الجمعية وحاجات غيرها من وجوه البر . فقد كان لا يبخل بمال ، ولا يحسب حساب ذريته الخاصة في سبيل تحقيق مصلحة عامة ؛ وقد طال عمره وهو كبير الراتب ، ولكنه لم يتهالك على جمع شيء من الحطام الفاني ، ولم يخرج من الدنيا إلا عن ميراث الحكماء والأصفياء ...

إذا ورث الجهال أبناءهم غنى ... وما لا فما أشقى بني الحكماء !

***

ألا سلام على تلك الشيخوخة الجليلة السمحة المتفائلة التي كانت تضحي بما يصحب تقدم السن من الترفع والاعتزال ، وتمتزج بروح الشباب لتطعمهم خبرتها وتجاربها ...

وسلام على تلك الروح الرحبة اللطيفة الوديعة التي كانت كأنها لا تعرف الغضب والمساءات . . . وعلى ذلك القلب البريء كقلوب الأطفال الأبرار ، وعلى تلك الأسارير المنبسطة التي يترقرق فيها الطهر وخلوص الطوية ، وعلى ذلك المنطق المتعفف عن الادعاء والغيبة وتجريح الناس ومقابلة السوء بالسوء ...

وسلام على تلك الجبهة العالية التي كرمت صفحتها عن سمات الذلة والخضوع لغير الحق . . . وعلى تلك الذاكرة الواعية التي ما كان يفر منها رقم أو مسألة من مسائل العلم والدين التي اطلعت عليها ، وما كان أكثرها !

ألا إن فقيدنا لم يكن شخصاً ، وإنما كان حديقة مزهرة مثمرة بأطايب المعاني العالية ، ورقائق الصفات الكريمة ، ووثائق الأخبار والأسمار والمعلومات ...

فرحمة الله له ، والخلود لذكراه ، والصبر الجميل لذويه وتلاميذه ومحبيه

عبد المنعم خلاف

شيء مما يختلج فيها ، إذن فكل ما يجرى فيها واضح المعالم والحدود تفصح عنه الأقوال والأفعال وتفسره [١]

على هذه السنة ، سنة الوضوح والإيضاح ، يقوم التحليل النفسي لدى الانباعيين [٢] والرومانسيين ومن ينحو نحوهم في كتابة القصص والمسرحية التي هي معارض لنماذج بشرية تتنفس وتتحرك وتعمل فيها

بيد أن المؤلفين الانباعيين والرومانسيين ، على أخذهم بقاعدة الوضوح هذه في علم النفس ، لم يكونوا بمنجاة من التعثر ببعض تلك الحالات النفسية المعقدة التي تبدو النفس خلالها ، وكأنها عالم يشوبه الغموض وتتجاوب أصداؤه بالمتناقضات والفوضى [٣]

فاذا كان موقف هؤلاء المؤلفين من هذه الحالات ؟ كانوا يحاولون التفسير جهدهم ليستخرجوا من الإبهام وضوحاً ومن الاضطراب نظاماً ، متجشمين في سبيل ذلك بياناً خطابياً حاذقاً ولهجة منطقية حارة يجرونها على ألسنة شخصيات رواياتهم ابتغاء الإفصاح ، وليسروا على القارىء أمر الانتقال من النتائج إلى الأسباب وبالعكس من غير ما يضطرب المنطق اضطرابة عنيفة ، وليقيموا صلة ما بين ما هو معقول ومألوف صدوره عن هذه الشخصيات ، وبين ما هو غير معقول وناب من بادرات طارئة وصور ذهنية معقدة في تواردها

وهذه الحالات النفسية المعقدة لدى الرومانسيين [٤] ، تمتاز عن مثيلاتها لدى الانباعيين بأنها تكون عادة مبطنة بفورات نفسية طارئة . ومرجع هذا كما هو معلوم ، أن الأدب الرومانسي أساسه القلب ، فهو يترك الحبل على الغارب للتيارات العاطفية دون أن يَعُد بينها وبين العقل الراجح شكيمة ولجاماً ، وهذا بخلاف ما هو عليه الأدب الانباعي

(١) أصول هذه النظرية في علم النفس منحدرة من صميم فلسفة (ديكارت) ١٥٩٦ — ١٦٥٠ وهو أحد واضعي الفلسفة الحديثة

(٢) خير من جرى على هذه النظرية لدى الانباعيين هو المؤلف المسرحي (بيركورنى) ١٦٠٦ — ١٦٨٤ ، ومن رواياته السيد . هوراس — سنا — بوليوكت

(٣) أروع ما تطالعنا هذه الحالات لدى المؤلف الانباعي (جان راسين) ١٦٣٩ — ١٦٩٩ وذلك في مسرحيته (أندروماك) و (فيدر) . ولا سيما في المسرحية الأخيرة وذلك في المشهد الذي تعترف فيه (فيدر) لحبيبها (هيبوليت) بحبها الآثم . ونجد مثل هذه الحالات أيضا في بعض ما كتبه (جان جاك روسو) و (ديدرو) في القرن الثامن عشر

(٤) أمثال (فكتور هوجو) ، و (دوفيني) و (ديماس الكبير)

لدى الواقعيين والطبيعيين

وفي أواخر القرن الثامن عشر ، نزل بهذه القاعدة في علم النفس الكثير من الهزال والتعقيد ، فأخذت تتحور على أساس نزعة فكرية جديدة ، سداها ولحمتها أن الكائن الإنساني ليس فقط ما يريد أن يكونه ، أو ما تقضي إرادته أن يستقيم عليه ، لأن العناصر المادية تجرى تأثيرها على جسده بلا انقطاع . فوعي الكائن الإنساني خاضع لمؤثرات المناخ والبيئة لا بجسمه فحسب ، بل وبروحه أيضاً ، وما يتأثر به الجسد تتأثر به النفس . وما دام الأمر كذلك — في زعمهم — فواجب أن ننظر إلى النفس وخلجاتها من وجهة نظر علمية خالصة ، وذلك بأن نخضع خلجات النفس وبادراتها ولمعاتها إلى التحليل العلمي الصرف [١]

هذه النزعة لم تكن غير صدى لسيطرة النزعة العلمية والتحليلية في القرن التاسع عشر في فرنسا وانجلترا ، فوجدت نظريات الوراثة والبيئة مجالاتها الواسعة فيما تخرجه أقلام الكتاب القصاصين والمسرحيين ، وهكذا تمت غلبة المحسوس على غير المحسوس في كل شيء ، وأصبح علم النفس خاضعاً لآلية (المعمل) يحلل ويجزئ ، وما يحلل ويجزىء غير مظاهر المادة . وسيطرت الواقعية [٢] Realisme على ألوان الأدب والفنون ، وتبعتها فيها (الطبيعية) Naturalisme وهي لون متطرف من الواقعية

ماذا كان يعمد إليه الكتاب الواقعيون والطبيعيون وهم يعالجون في رواياتهم تحليل شخصيات ملفحة بالغموض تنتابها تعقيدات نفسية ؟

وقد يحسب القارئ أن هذه الحالات النفسية المعقدة قد انتهى زمانها بعد أن أخذ العلم يحلل كل شيء ويعلل . لا شيء من هذا لم يحدث ، لأن هذه الحالات عريقة في النفس البشرية التي لم تتغير ولن تتغير ، وما كانت هذه النزعة العلمية التحليلية

(١) هذه النزعة العلمية ترجع في أصولها إلى الفلسفة الايجابية ، أو الواقعية ، أو اليقينية Positivisme التي أقامها الفيلسوف الفرنسي (أوجست كنت ١٧٩٨ — ١٨٥٣) . وأساسها أن الفلسفة شيء لا يختلف عن العلم الذي يقوم على الملاحظة والتجارب والفروض وتعليل الظواهر باطراد قانون العلة والمعلول . وقد امتدت أطراف هذه الفلسفة إلى انجلترا فكانت آراء الفلاسفة : استيوارت ميل وهاربسون وسبنسر

(٢) الواقعية اتجاه من اتجاهات الأدب ، استكمل عناصر كيانه في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وأصحابه يقولون بوجود العالم الخارجي وجوداً في ذاته ، وأن الحواس هي وسائل إدراكه ، ومظهرها في الأدب النقل المجرد عن الطبيعة في المحسوس والمرئي الظاهر

لتحجز الكتاب عن تقديم هذه المخلوقات المعقدة التي تبدو كأنها ظاهرات عجيبة ، نظراً إلى أنها تعيش بيننا ونحس بها ، ولأن القصة والمسرحية من مجالات تسجيل النفس على اختلاف ضروبها وتعقد حالاتها . للمناخ والبيئة تأثير لا ينكر أحياناً على بعث كوامن النفس واصطخابها ، فهما عاملان يساعدان أحياناً على إحياء التناقض في الطبع الإنساني الواحد ، ويمهدان لتشقيقه وفتح فجوات في كيانه . ولا شك في أن المؤثرات التي تنزل بالجسم وتنال منه ، من شأنها أن تشق للنفس مسارب تنفلت منها في وثبات لا يمكن للمنطق الخالص أن يعللها ويفسرها .

نعيد سؤالنا فنقول : ماذا كان يعمل هؤلاء الكتاب ، كتاب الواقعية (والمعمل) إذا عرضت لهم تلك التعقيدات النفسية ؟

لم يكن يعمدون إلى الصمت ولا شك . لقد كان أسلافهم الاتباعيون والرومانسيون — وهم أقل ادعاء للعلم منهم ، ولم يبلغ العلم في زمنهم ما بلغه في الواقعية — يعللون هذه الظاهرات العجيبة تعليلاً منطقياً ويفسرونها تفسيراً عقلياً متواضعاً ، فكيف يلزم الصمت الكتاب الواقعيون والطبيعيون ، ربائب العلم والنظريات المادية ، وقد تطاول العلم في زمنهم على كل شيء يحاول تعليله وتحليله وتفسيره ! ! كان الواقعيون يتحدثون كثيراً ويفسرون طويلاً ، لا على أساس المنطق والعقل ، ولكن على أساس النظريات العلمية ، يتعلقون بأذيال العلم ويحملونه ما لا يقدر عليه ، ليقرروا بعد ذلك — وهم يلهثون — أن هذه التعقيدات والظاهرات الإنسانية العجيبة ، إنما هي حركات انعكاسية للنفس نجمت عن تغيرات واضطرابات عضوية في الجسم خاضعة لقوانين المادة[1]

أفلاس المعمل

ولم يمض زمن طويل حتى خففت المادية من غلوائها بعد أن عجزت النظريات العلمية عن تفسير كل شيء ، وأفلس (المعمل) بعد أن أنهكه تحليل المركبات ، وسارت تلك التفسيرات التي يصدرها الكتاب الواقعيون والطبيعيون لا يؤبه لها ، بل غدت عقيمة عقم العقل نفسه في النفاذ إلى جوهر الأشياء واستبطان حقائقها . فاشرأبت النفوس إلى مطالعة وسائل جديدة غير الوسائل السالفة تقدم إليها ما ينقع غلتها في استطلاع المجهول الغامض في حناياها

الرمزية[1]

وكانت يقظة للنزعة الرمزية من جديد ، ولكن على غير غرار الرمزية الدينية (الصوفية) فقامت لها حركة بدأت في شمال أوربا وانحدرت إلى الجنوب ، وهذه الحركة في صميمها ليست إلا مظهراً من مظاهر المزاج الأدبي العام للتحرر من (واقعية) الأدب ، ووثبة من وثبات الذهن إلى ارتياد آفاق جديدة للكشف عن الغامض في النفس وحل أحاجي تلك التعقيدات النفسية التي سبق أن تحدثنا عنها

شوبنهور وهارتمان

وجاءت تعاليم الفيلسوفين شوبنهور[2] وهارتمان[3] من ألمانيا فأضافت جديداً على هذه الحركة التحررية ، فقد حاول هذان الفيلسوفان أن يقررا أن العالم لا يسيره الذكاء ، بل هو خاضع في سيره إلى نوع من الإرادة تعمل وتعمل من غير أن تفسر عملها ومن غير أن تأبه لقواعد العقل والمنطق . وهذه فكرة من فلسفة ما وراء الطبيعة Métaphysique[4] ولا شك . ولكنها تحمل في طياتها عناصر جديدة شام فيها الأطباء وعلماء النفس آفاقاً جديدة فعقدوا عليها فصولاً وبحوثاً أسفرت عن جديد يصح أن يتخذ مفتاحاً للمغلق الغامض في النفس

خطوات جديدة

العالم تسيره قوة تعمل من غير أن تفسر عملها ومن غير أن تعبأ بقيود العقل والمنطق ، والنفس جزء من هذا العالم ... ! ! من هنا يبدأ الخيط الذي رسم الاتجاه الجديد لعلم النفس فمن اكتشافات العلامة الفرنسي (شاركو) بين ١٨٧٠

(١) في رواية الكاتب الفرنسي أميل زولا نطالع أروع ما ورد من التحليل النفسي القائم على النظريات العلمية المجردة ، فقد اتخذ قوانين الوراثة أساسا لما لا يحيد عنه

(١) تحدثنا باسهاب عن هذه الرمزية رمزية أواخر القرن التاسع عشر ، ثم عن الرمزية الحديثة في بحوث سابقة نشرتها هذه المجلة في أعدادها ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٣٢٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥

(٢) شوبنهور . فيلسوف ألماني ١٧٨٨ — ١٨٦٠ — ومن مؤلفاته [العالم كارادة وفكرة]

(٣) هارتمان فيلسوف ألماني ١٨٤٢ — ١٩٠٦ ومن مؤلفاته فلسفة العقل الباطن]

(٤) القصد من دراسة « ماوراء الطبيعة » أو الميتافيسيقية هو محاولة الكشف عن طبيعة الحقيقة اللانهائية

و ١٨٩٠ فى التنويم المنغطيسى وإثباته أن فى الاستطاعة أن يسكب المنوم فى نفس الوسيط آراء وواردات لم يكن لها أصل فى ذهنه الواعى ويوجهه توجيهات لم يكن له قبل بها من قبل ...

إلى ما كتبه العلامة (ريبو) عن أمراض الذاكرة ، وذلك فى ما بين ١٨٨٢ و ١٨٨٥ وتدليله على أنه تسكننا حافظات لا نحسها — إذ ليس لنا بها علم من قبل — ولكنها تعيش فينا متحوية منطوية على نفسها ، وسرعان ما تنسرح وتنشر مطاويها فينا على أثر مرض طارئ ؛ وكيف أن كائناً إنسانياً عادياً متماسكاً ليس فى مظهره شذوذ ما قد ينقلب فجأة شخصاً آخر ، شخصاً عادياً بدوره ، ولكنه لا يذكر شيئاً عن الشخص الأول ؛ وكيف أن هذا الكائن الإنسانى قد يجد من جديد شخصه الأول الذى كان يعيش ولا شك فى زاوية من عقله اللاواعى أو الباطن ، وذلك بمجرد اختفاء الشخص الثانى . . .

إلى ما انتهى إليه (بيير جانيه) فى دراسته للإيهام وللاضطرابات العصبية وأمراضها ، من أن هنالك ما يحمل على الاعتقاد بأنه يمكن أن تعيش فى نفس كائن إنسانى واحد شخصيات عديدة وتيارات متباينة قد تتدخل فى بعضها أحياناً وتختلط مدومة مدوية !

العقل الظاهر والعقل الباطن

وقام العلامة (سيجموند فرويد) (١٨٥٦ — ١٩٣٩) النمساوى وأنشأ فصولاً جديدة فى التحليل النفسى تعرف باسم Psychanalyse أرجع فيها كل خليقة من الخلائق ، وكل عارضة من عوارض النفس إلى الغريزة الجنسية ، وقرر أنه يسكن النفس البشرية ذاتان ، الأولى طبيعية بدائية عارية من كل صقل جبلت وفاقاً للطبع المركب فينا ، والأخرى مختلفة اختلافاً بفعل التثقيف والتهذيب ، ومنسقة تنسيقاً صناعياً بيد الاجتماع والتواضع عليه .

ثم استطرد للبحث ليقول إن عقلنا — وهو واعيتنا الظاهرة — لا يجيب غير ما يصدر من الذات الأخرى التى هى من صنع التثقيف والتهذيب ، ولكن قد يقع كثيراً أن تتغلب الذات البدائية العارية من كل صقل وتنسيق فتجمح النفس وتبدر منها بادرات طارئة فى القول أو الفعل تبدو غريبة معقدة ، وتلمع فى النفس لوامع خاطفة لا تتأنى ولا تنفصل !

برجسون (١٨٥٩؟ — ١٩٤٠)

وانبرى الفيلسوف الفرنسى برجسون يشن حرباً شعواء على النزعة الآلية والمادية وليدة العلم و (المعمل) ، ويخطىء من يحسب الإنسان آلة صماء فى يد القوانين المادية ، وهاجم الذكاء والمنطق لينادى بوجود عنصر جديد فى النفس أسماه البصيرة L'intuition نعيش به أكثر مما نعيش بذكائنا ومنطقنا ، أى بالعقل . ثم حدد العقل الظاهر أو الواعى بما مفاده أن هـذا العقل الظاهر ليس إلا جزءاً من كياننا النفسى العام ، ودوره عملى خالص لا يتجاوز إلقاء ضوء مزدوج على أطراف الأشياء والتى يجب أن نعملها وعلى نواحى الفكر التى تتولاها ، وأنه ليس لهذا العقل الـ.. أن يفسر الأشياء وأن يفصح عنها . ثم قرر برجسون بعد ذلك : أننا نتجاوز أحياناً فى أعمالنا الحدود والمعالم التى يقيمها العقل الظاهر ، وأننا خاضعون فى تصرفاتنا إلى العقل الباطن ، باعتبار أنه النبع الخفى البعيد النور المترامى الأطراف الذى ينساب منه فى خيط دقيق ماء رقراق ، هو عقلنا الظاهر !

كل هذا مع ما جاء على غراره جعل الحياة الباطنة تتغلب على الحياة الظاهرة ؛ فأخذ علم النفس يتجه اتجاهاً جديداً ، يتلخص فى أن العقل الواعى إنما هو شىء ظاهر سطحى لشىء باطن عميق قابع فى أغوار النفس ؛ وأنه إذا أردنا أن نبحث عن تفسيرات تلك التعقيدات النفسية من بادرات طارئة وواردات غريبة فلنطرق باب العقل الباطن حيث لا سلطان للعقل والذكاء ، ولا صوت للمنطق والإرادة ، وحيث الغرائز تتشابك وتفور

زكى طليمات

ظهر حديثاً

فنـــدق الدانوب

لمحمود البدوى

ويطلب من مكتبة النهضة المصرية بشارع عدلى باشا
ومن المؤلف — ١٩ شارع محمد سالم — منيل الروضة
وثمنه خمسة قروش